﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التّوبة: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّما قَبِلَ توبتَهم لِما اتَّصفوا به من الصِّدقِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى التَّوبةَ على الثَّلاثةِ؛ بيَّن أنَّ باعثَهم على ذلك صدقُهم، وما اتَّصفوا بهِ من التَّقوى؛ إذ كان للصِّدق والتَّقوى أثرٌ كبيرٌ في قبولِ اللّه تعالى توبتَهم، فأتبعَ ذكرَ التَّوبةِ عليهم بالأمرِ بالتَّقوى والصِّدقِ[1]، ومن المناسبةِ كذلك أنَّه تعالى "لمّا حكم بقبولِ توبةِ هؤلاء الثَّلاثةِ؛ ذكرَ ما يكونُ كالزّاجرِ عن فعلِ ما مضى، وهو التَّخلُّفُ عن رسولِ اللّه ﷺ في الجهادِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ أمرِ الرَّسول ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني: مع الرَّسولِ وأصحابِه في الغزَواتِ، ولا تكونوا مُتَخَلِّفين عنها، وجالِسين مع المنافقين في البيوتِ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، من ذلك الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لهُ[3]، والصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القول، وهو: مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا، وقد يُستعملانِ في كلِّ ما يحقُّ، ويحصُلُ في الاعتقادِ، نحو: صدقَ ظنِّي، وكذبَ، وفي أفعالِ الجوارحِ، فيُقال: صَدَقَ في القتال؛ إذا وفَّى حقَّهُ، وفعلَ ما يجبُ، وكما يجبُ، وكذبَ في القتالِ؛ إذا كان بخلافِ ذلكَ، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾ [الأحزاب: 23]، أي: حقَّقوا العهدَ بما أظهروهُ من أفعالهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41، والحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/27.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـأكـيـدُ وجـوبِ التَّقوى والانتماءِ إلى أهلِ الصِّدقِ

يخاطبُ اللّه تعالى الذين آمنوا، وصدَّقوا باللّه تعالى وما أخبرهم بهِ النَّبيُّ ﷺ بأن يطيعوا اللّه تعالى فيجتنبوا ما نهى، ويأتوا بما أمرَ، وأن يثبُتوا على التَّقوى والإيمانِ، ويكونوا مع أهلِ الصِّدقِ في الأقوالِ والأفعال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ جملةِ الاعتراضِ:

الاعـتراضُ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رتبتِهِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ اعترضَ بهِ النَّظمُ الكريم بين ذكرِ توبتهِ تعالى على مَن سبقَ ذكرُهم، وبين النَّهي عن التَّخلُّف في قوله في الآيةِ اللّاحقة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ فالأمرُ بالتَّقوى والصِّدق كالخاتمةِ للآية الَّتي قبلَها، فحسُن المجيءُ بهِ "بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفعَهم الصِّدقُ، وذهبَ بهم عن منازلِ المنافقين، فجاءَ هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلام؛ إذ عَمَّ في القصَّةِ ما يجب التَّنبيهُ على امتثالِه"[2]، وهو اعتراضٌ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رُتْبَتِهِ[3]، وأنَّهُ سبيلٌ للنَّجاةِ، وهو بمنزلة الاعتراضِ التَّذييليِّ للقصَّةِ، "فإنَّ القصَّةَ مُشْتَمِلَةٌ على ذِكْرِ قومٍ اتَّقوا اللّه، فصدقوا في إيمانِهم وجهادهم، فرَضِيَ اللّه عنهم، وعلى ذِكْرِ قومٍ كَذَبوا في ذلك، واختلقوا المعاذيرَ، وحلفوا كَذِبًا، فغضِبَ اللّه عليهم، وقومٍ تخلَّفوا عن الجهادِ، وصَدَقوا في الاعترافِ بعدمِ العذرِ، فتابَ اللّه عليهم، فلمّا كان سببُ فوزِ الفائزين في هذهِ الأحوال كلِّها هو الصِّدقُ لا جَرَمَ أمرَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 281.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94 - 95.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.

اللّه المؤمنينَ بتقواهُ، وبأن يكونوا في زُمرةِ الصّادقين، مثلَ أولئك الصّادقين الذين تضمَّنتهم القصَّةُ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ النِّداءِ:

النِّداءُ يجذبُ انتباهَ السّامعِ لمضمونِ القولِ

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ افتتحَ الخطابَ بالنِّداء تنبيهًا على الاهتمام بمضمون القولِ، وأنَّهُ بحيثُ يجبُ أن يُنْتَبَهَ لهُ، فاسمعوهُ، وخاطبَهم بصفةِ الإيمانِ تنبيهًا على أنَّ ما يأتي في الخطابِ هو من أعمالِ المؤمنين.

سرُّ العُدولِ عن خطابِ الثَّلاثةِ إلى خطابِ المؤمنين جميعًا:

إعمامُ الخطابِ حثٌّ للمقصِّرِ وتثبيتٌ لأهلِ الصِّدقِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خطابٌ لكلِّ المؤمنين، وإن كان قد وردَ في سياقِ الحديثِ عن توبتهِ تعالى عن الثَّلاثةِ، وللإمامِ البقاعيِّ كلامٌ نفيسٌ في بيان ذلك؛ إذ قال: "﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: في كلِّ أمرٍ يُطلبُ منهم، ولعلَّهُ أخرجَ الأمرَ مَخْرَجَ العمومِ؛ ليشملَ كلَّ مؤمنٍ، فمن كان مُقَصِّرًا كانتْ آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا؛ كانت حاثَّةً له على حفظِ مقامِ الاستباقِ"[2].

نكتةُ وصفِ المُنادى بالاسمِ الموصولِ:

المؤمنُ الحقُّ مقبلٌ على خطابِ ربِّهِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نادى أشخاصًا معهودينَ، والعُهدةُ الصِّفةُ المذكورةُ في صلةِ الموصولِ، وهي الإيمانُ، وذلك يتضمَّنُ التَّنبيهَ إلى أنَّ ما سيأتي بعدَه، فإنَّه ممّا يختَصُّ بالمؤمنين، وأنَّه من واجباتِ الإيمان، فيُقبِلونَ على مضمونِ الخطابِ بمزيدٍ من الانتباهِ لسماعهِ، بعدَ الانتباهِ المحقَّقِ بالنِّداءِ.

بَيَّنَ الموصولُ علَّةَ إيمانِهم، وخصَّهم بالذِّكر مع العمومِ

ويشيرُ الاسمُ الموصولُ أيضًا إلى أنَّ علَّةَ أمرِهم بالتَّقوى، وأنْ يكونوا مع الصّادقين، هو إيمانُهم، فضْلًا عن احتمالِ أنَّ الخطابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42، والشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

مع كونهِ عامًّا، فإنَّه يُلمَحُ فيه الخصوصُ، وهم الثَّلاثةُ، بـ"الإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ الثَّلاثةَ حصلَ لهم بالصِّدقِ ما حصلَ من توبةِ اللّه، وظاهرُ الآيةِ الأمرُ للعباد على العموم"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلة فعلًا ماضيًا:

نـودوا بوصفِ الإيمانِ الرّاسخِ فيهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خاطبَ المؤمنين بإدخالِ حرفِ النِّداءِ على الموصولِ الَّذي صلتُهُ فعلُ الإيمانِ، وجاء ذلك بصيغةِ الفعل الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم قد تحقَّقَ، وصارَ راسخًا مقطوعًا به بحيثُ إنَّهم يُنادَوْن بهذا الوصفِ تشريفًا، وعُلوَّ كعبٍ.

توجيهُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾:

الأمـرُ بالتَّقوى تذكيرٌ بخطورةِ التَّخلُّف

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جاء اعتراضًا خلالَ الحديثِ عن حرمةِ التَّخلُّف عن رسولِ اللّه ﷺ، فالأمرُ بالتَّقوى في هذا السِّياق تأكيدُ شأنِ مصاحَبَتِه في سَيْرِه، والمعنى: يجبُ عليكم التَّقوى "في كلِّ ما تأتون، وما تَذَرون، فيدخُل فيه المعاملةُ مع رسولِ اللّه ﷺ في أمرِ المغازي دخولًا أوَّليًّا"[2]، فالأمرُ بالتَّقوى في سياقِ التَّحذيرِ من التَّخلُّف عن المغازي تذكيرٌ للمؤمنين بخطورةِ التَّخَلُّف؛ لأنَّ ارتكابَهُ خروجٌ عن التَّقوى الواجبةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ منصوبًا على التَّعظيم:

المؤمنُ في غايةِ التَّقوى والخوفِ مِمَّن له كمالُ العظمةِ والجلالِ

في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فقد جعل النَّظمُ الكريمُ فعلَ التَّقوى المأمورَ بهِ واقعًا على الاسم المُتَضَمِّنِ الجلالَ والكمالَ؛ تعظيمًا لوجوبِ هذه التَّقوى، "أي: خافوا سطوةَ مَن لهُ العظمةُ الكاملةُ؛ تصديقًا لدعواكم، فلا تفعلوا إلّا ما يُرْضيهِ"[3].

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 2/471.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

نكتةُ الأمرِ بالفعلِ (كن):

الأمرُ بالكَينونةِ أبلغُ في إيجابِ التَّحلِّي بالصِّدقِ

جاء الأمرُ بفعلِ الكينونةِ في قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دونَ الفعلِ المباشرِ بأنْ يقولَ: (اصدقوا)؛ لأنَّهُ أرادَ المبالغةَ في أن يكونوا كذلك؛ لأنَّ "الأمرَ بـ (كونوا مع الصادقين) أبلغُ في التَّخلُّق بالصِّدقِ من نحو: اصدقوا"[1]، فالأمرُ بالفعلِ كان يقتضي أن يكونَ الوصفُ قدِ انطبعَ في السُّلوكِ حتَّى يكونَ سجيَّةً وطبعًا[2].

سرُّ تعقيبِ الأمرِ بالتَّقوى بالأمرِ بالصِّدقِ:

الكذبُ مبعثُ كلِّ رذيلةٍ، والصِّدقُ مجمعُ الزَّغائبِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَهم بأن يكونوا مع الصّادقين بعد الأمرِ بالتَّقوى تنبيهًا على فُحْشِ نقيضِ الصِّدق، وهو الكذبُ، فقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ "أي: في جميع الرَّذائلِ بالاجتنابِ عنها، خاصَّةً رذيلةَ الكذبِ، وذلك معنى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فإنَّ الكذبَ أسوأُ الرَّذائلِ وأقبحُها"[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

لا نَفْعَ في صدقٍ من دونِ الانضمامِ في زُمرةِ الصّادقين

آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن يأمرَهم بالكَيْنونةِ بقيدِ المَعِيَّةِ، فيكونوا مع الصّادقينَ، ولم يأمرْهم بأن يكونوا صادقينَ مباشرةً، فلم يقل: (وكونوا صادقين) إشارةً إلى أنَّ الصِّدقَ وحدَهُ لا يكفي، بل لا بدَّ من الانضمامِ إلى جماعةِ الصّادقين، ومصاحبتِهم، فـ﴿مَعَ﴾ "في هذه الآيةِ تقتضي الصُّحبةَ في الحالِ، والمشاركةَ في الوصفِ المقْتَضِي للمدحِ"[4]، فأوجبَ عليهم إقرانَ أنفسِهم مع أهلِ الصِّدق، فهو أمرٌ أبلغُ من الأمرِ بالصِّدقِ؛ إذ يقتضي أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/525.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/95.

المخاطَبُ صادقًا وزيادةً، وقد أَلمحَ الإمامُ البقاعيُّ إلى أنَّ التَّعبيرَ قد يدلُّ على ضرورةِ الاتِّصاف بالصِّدقِ بأيِّ درجةٍ كان؛ فـ "لعلَّهُ عبَّرَ بـ ﴿مَعَ﴾؛ ليشملَ أدنى الدَّرجاتِ، وهو الكونُ بالجثثِ"[1]، فيجبُ على المؤمن أن يرافقَ الصّادقين، وإن لم يكنْ بدرجتِهم بأن يحضُرَ معهم حضورًا بنفسهِ في مجتمَعِهم ومرافقتِهم؛ لأنَّ الصّاحبَ بالمصاحبِ مقتدٍ، فيتعوَّدُ منهم الصِّدقَ، كجليسِ نافخِ الطِّيبِ يصيبُه منه عبيرُهُ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مَعَ﴾:

الأمرُ بالمعيَّةِ نصٌّ بالمصاحبةِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَ اللّه تعالى المؤمنين أن يكونوا بمَعِيَّةِ الصّادقين، ولم يقل: (وكونوا من الصّادقين)؛ لأنَّ "(مِن) أعمُّ مِن (مع)؛ لأنَّ كلَّ مَن كان مِن قومٍ؛ فهو مَعهم في المعنى المأمورِ بهِ، ولا ينعكسُ ذلك"[2]، فالمأمورُ أن يكونوا معهم، وإن لم يكونوا قد صاروا منهم بالاتِّصافِ بوصفِهم، ويفيدُ ذلك أن يكونوا معهم، ولو كَوْنًا بمجرَّدِ الحضورِ والوجودِ معهم، فعبَّرَ "بـ ﴿مَعَ﴾ ليشملَ أدنى الدَّرجات، وهو الكَوْنُ بالجثثِ"[3].

نكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

أمرُهم بأن يكونوا مع الصّادقين حثٌّ لهم على تقويمِ مَسْلَكِهم

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خصَّ الأمرَ بأن يكونوا مع الصّادقين، دونَ الأمرِ بأن يكونوا مع مَنِ اتَّصف بصفةٍ أخرى؛ لأنَّ صفةَ الصِّدق هي الأنسبُ بعدَ قِصص المتخلِّفين والمُعَذَّرين، فأمرَهم بالكينونةِ مع الصّادقين حثًّا لهم على تقويم مَسْلَكِهم، وأن يكونوا صادقين "في دينِ اللّه نيَّةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.

وقولًا وعملًا، أو في كلِّ شأنٍ من الشُّؤونِ، فيدخلُ ما ذُكر أو في توبتِهم وإنابتِهم"[1]، ولأنَّ ما وقع من الثَّلاثةِ ومن المُعَذَّرين إنَّما صدرَ لِما في موافقةِ أقوالِهم لفعلِهم من وُهْنٍ، فكان الصِّدقُ هو الأنسبَ للسِّياقِ، فـ" الصِّدقُ نهايةُ الأحوالِ، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانيةِ"[2]. وكفى بها فضلًا أنَّها ثانيةٌ لرتبةِ النُّبوَّةِ في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النّساء: 69][3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/71.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»